«لغة الخشب» والإتصال
حول بعض المعوقات الدلالية*

بقلم ولفانك، س. فروند**
ترجمة: أ. محمد مزيان
د. عبد القادر شعباني
معهد علوم الإعلام والاتصال - جامعة الجزائر

1 - التجربة النازية:

قد تكون الرغبة غير مجدية في محاولة ايجاد تعريف مناسب لمدلول «لغة الخشب» من خلال الرجوع مثلا إلى قاموس «روبير الصغير»، الذي يعتبر الانجيل المعجمي للناطقين باللغة الفرنسية، فـ «لغة الخشب»، خلافا لما يسمى «بصك الخشب» غير واردة فيه، فهل يعتبر ذلك إشارة غير مباشرة إلى قلة الإحترام التي تكنها الدوائر العليا للمثقفين الفرانكوفونيين لهذا المفهوم؟

---

* نشرت هذه الدراسة في مجلة: Etude Internationales n0 43 - Juillet 1992 - Tunis.

** أستاذ بجامعة باريس II، معهد الصحافة.

ونظرا لتعذر إيجاد تعريف لغوي ملائم، سنكتفي بإقتراح تعريف ظرفي، يمكن أن يعكس دلالة هذا اللفظ، رغم افتقاره إلى بعض الجوانب العلمية: فـ «لغة الخشب» تعني، وباتفاق الجميع: إجماع اللجنة المركزية CONSENSUS COMITE CENTRAL (C.C.C.).

ويعود بنا مصطلح «لغة الخشب»، من جهة أخرى، إلى كتاب ظهر لأول مرة في ألمانيا، سنة 1946، تحت عنوان (لغة الرايخ الثالث)، بقلم فيكتور كليمبرير. وقد عمل هذا الأخير أستاذا للأدب الألماني في جامعة دريسد إلى غاية الثلاثينيات حيث إنتقل إلى إنجليترا بسبب عدم التوافق العرقي، بالقياس مع التعابير السامية التي وضعها منظرو العرق الآري (بعبارة أوضح، ودون اللجوء إلى صيغ لغة الخشب، كان يهوديا)، علما بأنه نشر كتابه هذا، سنة واحدة بعد الهزيمة النازية ولدى عودته إلى ألمانيا.

وتحتوي دراسة فيكتور كليمبرير على أمثلة حية وتفسير دقيق لكل التشويهات التي أصابت اللغة الألمانية – لغة غوته، لغة العلم والأدب من دون منازع، إلى غاية الكارثة النازية – من جراء الشمولية النازية ودعايتها المغرضة، وقد قام كليمبرير بتحليل صارم لهذه الظاهرة، حيث لا تزال أجزاء معتبرة من اللغة الألمانية، إلى حد الآن، تشكو من سمات ما يسمى بـ «لغة الخشب» التي أضفاها عليها النازيون ما بين عامي 1933 و 1945.

لم يكتف النازيون بجر الألمان إلى الغياهب التي نعرفها، بل تسببوا كذلك في المساس بما يشكل أعز مقومات الأمة: ألا وهو حيوية اللغة وثراؤها، وذلك بجعلها مجرد أداة نشر دعاية متواصلة وتعبئة مغرضة دائمة في خدمة النظام. ولم يسبق أن طغت متطلبات الدولة الأمنية ومساعيها في فرض نفسها، من خلال اختراقها الكلي لمجال يعتبر رمز وجود الأمة الجماعي، وهو اللغة التي تعبر بها الجماعة الوطنية والثقافية، قبل عهد جوزيف غوبلس، وزير الدعاية أثناء حكم أدولف هتلر وأعوانه. وقد تعرضت جميع مؤسسات

الدولة النازية – بما فيها الصحافة – الإذاعة – خطب رجال السياسية – اللغة الإدارية لوباء هذا الداء الجديد الذي يصيب الإنسان من خلال ما اصطلح على تسميته: غسل الدماغ.

2 - أمثلة ملموسة:

لا يمكن فهم كل الميكانيزمات الضرورية لتحويل لغة حية ودقيقة، في البداية إلى «لغة الخشب» – قصد استخدامها كوسيلة تعبئة قامعة، تحقيقا لقضية ما ... شبيهة بما كان يعرف بـ: «خشب العدالة»، أثناء الثورة الفرنسية، دون دراسة لسانية مستفيضة. وكل التقنيات مقبولة، والتي من بعضها ما يلي:

– الإفراط في استعمال الحروف المختصرة:

إن النازيين الألمان هم الذين استعملوا هذه المختصرات لأول مرة، وذلك بغرض إتصالهم الخاص، وقد استطاع الجميع، بما في ذلك الأجانب، استيعاب مصطلحات (الوزن الثقيل LKM)، (سيارة ليموزين PKM)، (القوة من خلال السعادة KDF)، تساوي نادي عطلة في خدمة أوفياء النظام، و(NSDAP)، الشهيرة، التي تعني ببساطة الحزب الوطني الإشتراكي العمالي الألماني، أي الحزب النازي بالذات، والذي يحمل في ثناياه ذكريات مأسوية – ولا أحد يجهل إلى يومنا هذا ما تعنيه عبارة BMW = مصنع بفاريا للمحركات و VW أي سيارة الشعب، واللتان كانتا أيضا من إختراع النازيين.

– تعابير الخطاب التجنيدية:

بعض الأمثلة فقط:

– اليهودية العالمية.

– الحرب الشاملة.

- المؤامرة اليهودية البلشفية.
- المد نحو الشرق.
- الشعب من دون مجال.
- المجال الحيوي.
- انحلال الغرب.
- نظام السلام الأوروبي الجديد.

وقد أدى هذا الحصر السيمانطيقي إلى إضعاف اللغة الألمانية، والكثير من اللغات الأخرى، ولا تزال أعراض هذا «النظام الجديد» قائمة إلى يومنا هذا.

- **تعابير مجازية تخفي واقعا مغايرا:**

«المعالجة الخاصة» التي تؤدي حتما إلى «الحل النهائي»، وفي الحالة هذه، لقد اعتمد الخطاب الإعلامي السوفياتي، إلى ماض قريب، نفس المبدأ الذي يتمثل في إخفاء الفضاعة بصيغ عادية، «محايدة»، كما يمكن أن نستدل على ذلك من خلال هذا العمود الذي نشر في جريدة البرافدا:

«تم استدعاء الرفيق إيفانوفيتش بصفة عاجلة للامتثال أمام لجنة الحزب المديرة قصد تقديم بعض التفسيرات حول حسن سير مصنع «القاطرة الأبدية».

سرعان ما يدرك «الخبير بشؤون الكرملين» أن ما تعنيه هذه الأسطر هو توقيف إيفانوفيتش ومحاكمته في نفس اليوم ثم إعدامه في اليوم الموالي (في عهد ستالين) أو نفيه إلى الغولاق (إلى غاية 1985).

وهكذا، اعتمدت كل الأنظمة الكليانية في العالم تقنية نازية أخرى، من طراز «لغة الخشب» وبالخصوص «رفاق» الشرق الشيوعي سابقا. ويتعلق

الأمر بنوع من «التوليدية GENETIVITE». نظرا لكون هذه التقنية تستعمل سلسلة من التوليدات مرفوقة باختصارات متتالية، نذكر مثلا، من باب الهزل، صيغة RLDRCCPPP، والتي تعني: «ممثل المندوب الإقليمي للجنة المركزية للحزب التقدمي الشعبي». أمر عادي! هذا، بينما يقترب الواقع أو يتجاوز، في بعض الأحيان الهزل الأحسن «إتقانا». إذ يمكننا، عند الإطلاع على العدد رقم 3-1991، من المجلة الألمانية – التونسية، ذات الطابع الردئ، والتي تصدر مرة كل شهرين، في ألمانيا وباللغة الألمانية، معرفة أن رئيس تحريرها قد وضع قائمة أبجدية تحتوي على 171 مختصرة، غالبا ما تستعمل في الصحافة التونسية، الصادرة باللغة الفرنسية، لترجمة بعض المقالات الصادرة في اليوميات الثلاث الناطقة باللغة الفرنسية في تونس، لقراء المجلة الألمانية – التونسية.

3 - الأهداف:

تصبو «لغة الخشب»، بمختلف أصنافها، في آخر المطاف، إلى تحقيق هدف واحد: يتمثل في الانتقاص قبل كل شيء من قيمة الخطاب، ومن ثم إخضاعه للمراقبة، وجعله بعد ذلك أداة حقيقية وفعالة، بالمعنى التكنوقراطي، فلنأخذ، على سبيل المثال، الألفاظ التالية: «المعالجة الخاصة» و«الحل النهائي» اللذين انتشر استعمالهما ابتداء من عامي 1942 / 1943 في الملفات النازية الخاصة بتسيير مراكز الإبعاد وتنظيمها. إذ يمنع الواقع اللاإنساني السائد في هذه المراكز استعمال أية لغة في هذه الوثائق، المنتقلة من أسبوع إلى آخر، عبر عدد من مصالح البلاد، والتي يتم حجزها في مختلف مستويات سير العمليات العادي. وبهدف إعطاء طابع عادي لمثل هذه الأعمال، ثم إضفاء نفس الطابع على اللغة، كما يمكن، من جهة أخرى، إيجاد نفس

التقنية في التقارير الصادرة عن العدالة، والتي تجمع على تنفيذ الحكم بالإعدام على متهم، حيث أدت «البراءة» الإدارية (للسلطات الألمانية في عهد هتلر) إلى حد إرسال فاتورة النفقات التقنية الناتجة عن تطبيق حكم العدالة، إلى أولياء المتهم المباشرين، وذلك عن طريق البريد.

وهكذا، تختفي كل التفاصيل الإجرائية البشعة والخاصة بعملية الإغتيال القانوني وراء ستار لغوي عار من أية إشارة مباشرة إلى حبل المشنقة أو المقصلة: تلك الحالة الخاصة التي تجد فيها «لغة الخشب» فعاليتها.

وبالتالي، يعتبر مفهوم الفعالية مفتاحا لفهم انشغالات المهتمين بهياكل «لغة الخشب» ومستعمليها. ورغبة في إخضاع تعابير الإنسان الإتصالية العفوية والمقلقة أحيانا، يسعى مغتصبو اللغة الحية – إلى جعل الفعل والعملية التكنوقراطية أكثر فاعلية بغية تفادي أية مفاجآت أو عطب غير منتظر.

ولهذه المدلولات الثلاثة: «شمولية – مجتمع تقني – لغة الخشب» علاقة وثيقة وعضوية فيما بينها، ولن نتمكن من فهم روح الحركات الشمولية الكبرى، التي طبعت هذا القرن، سواء كانت يسارية أو يمينية، متقدمة أو في طريق النمو، إن نحن تغاضينا عن الإعجاب العفوي الذي يبديه زعماؤها إزاء التقدم التقني، وكل ما يرمز إلى «الآلة»، وما يدور بصفة أوتوماتيكية، سواء كان ميكانيكيا أو معلوماتيا وما يستغنى عمدا عن ابتكارات الإنسان المحيرة في واقعه كفرد وكفاعل إجتماعي.

ذلك هو المناخ الذي يشبه وسطا حقيقيا «للغة الخشب»، فهي تتكاثر بصفة إعتباطية في المجتمعات ذات التوجه التقني والأكثر استعدادا للتسيير الشمولي لشؤونها الخاصة، تسيير يجعل من المكتسبات التكنولوجية في مجتمع ما، بمثابة نظام شبه ديني (ارجع، في هذا الإطار، إلى دراسة إيريك

فروم: «العقيدة الصناعية»)، وبالتالي، «تتمكنن» اللغة كذلك، ولعل من الأصح أن نسميها «لغة الحديد» أو «لغة الخردة»، والتي تصبح بدورها أداة شبيهة بالمطرقة وبالمفك.

4 - إفقار وعولمة:

تصبح «لغة الخشب» فقيرة من حيث مفرداتها وصورها الدلالية، بسبب رفضها للرموز التي لا تخدم مباشرة النظام الذي تخضع إليه - وتكتسي، اليوم بعدا عالميا، بعيدا عن كل نظام شمولي ظاهري (بيد أنّه لا ينبغي أن تعتبر الحضارة المسماة «بالعملية والتقنية» - والتي يفترض أن تبنى عليها قيم المستقبل الفريدة - بمثابة شمولية، هي الأخرى)، إذ يمكن اعتبار «الإنجليزية الدولية الجديدة» حاليا، ومن الناحية اللسانية، تجسيدا واضحا لها، فهي تقتحم عالم اليوم كوسيلة للإتصال عبر حدود كل القارات. إذ نجد في الواقع مادة جوهرية تسعى إلى أن تصير عملية، من اليابان إلى الأرجنتين، أي أساس متفرع عن لغة غنية بالتعابير والمعاني الدلالية (أكثر غنى من اللغة الفرنسية بالذات)، وهي تجمع ما بين 2000 إلى 3000 «تعبير دولي» غالبا ما نجدها في تقارير الأمم المتحدة وأوراق الخبراء العلميين، غير الناطقين باللغة الانجليزية أصلا، في المؤتمرات وفي اللغة الدبلوماسية والتجارية الدولية وفي برقيات وكالات الأنباء الكبرى (وكالة الصحافة المترابطة AP، وكالة رويتر REUTER، وكالة الأنباء الفرنسية AFP)، أي لغة منمطة تعكس وقائع الكون المعقدة في عدد من التعابير لا يتجاوز 3000 تعبيرا.

وبناء عليه، فإن رجل الأعمال الياباني وعالم الفيزياء الهندي والطبيب الإيراني والصحفي المصري والمهندس الألماني والأكاديمي الفرنسي ولاعب

التنس الأرجنتيني يميلون إلى الاعتقاد بأنه بإمكانهم الإتصال فيما بينهم بفضل لغة «أساسية BASIC»، وأمام ضرورة الاحتفاظ بطابعها العملي على أدنى مستوى مشترك، تضطر إلى القضاء على كل الدقائق والذاتيات التي تجعل فعلا من اللغة بطاقة تعريف مستعملها. وبالتالي، تصبح «اللغة الانجليزية الدولية» هذه «لغة الخشب» من دون منازع، وهي فيما تسعى إلى أن تكون وسيلة فعلية للاتصال ما بين الثقافات، تشوه في الواقع أساس المحتويات والرسائل التي يصبو هذا الاتصال إلى نقلها.

5 - في وسائل الاتصال الجمعي:

تحاول اللغة المحدودة أي ما يعرف بـ «لغة الخشب» لا سيما في وسائل الاتصال الموجهة إلى جمهور واسع ودولي، من خلال استبدال المعاني الفكرية الدقيقة والمشاعر والكلام، وبتعبير «قوي» وعام، القضاء على مكونات اللغة، وبالتالي تصبح وسيلة للدعاية والتضليل والتوجيه الجماعي. فقد بينت وسائل الاعلام الغربية ذلك مؤخرا، وبوضوح تام خلال حرب الخليج.

ولا ينبغي أغفال جوانب أخرى من «لغة الخشب» الاعلامية فهي تظهر كذلك في المجتمعات التي تعيش في ظل نظام شمولي (أو تلك التي هي بصدد الخروج منه رغم احتفاظها ببعض العلاقات معه)، «فالرسائل غير الدقيقة» هي التي تسعى إلى نقل حدث ما، آخذة في ذلك كل الاحتياطات المهنية المعمول بها.

ويمكن غالبا قراءة جمل منمطة، على هذا النحو، في هذه الجرائد: «يبدو حسب مصدر موثوق أن ... » وتكون في أغلب الأحيان مرفوقة بشيء من الخجل والتردد، ببعض الإشارات الغامضة إلى حدث يستدعي كل واجبات التحفظ.

وكثيرا ما نجد كذلك بيانات خالية من أي أساس جوهري، تسمح رغم ذلك لقراء ما بين الأسطر استنباط أسرار تغيب على عامة الناس - نذكر منها من باب الاستدلال: «التقى وزيرا الداخلية للبلدين الشقيقين يوم أمس بغية مناقشة عملية التقارب التي ما لبثت تتعزز بين الوزارتين يوما بعد يوم».

ولمن يحسن التأويل ... يمكن أن يستنتج الحقيقة التالية: إذ يمكن أن نعلم فيما بعد أن النظيرين التقيا، من خلال طرق ملتوية لمناقشة حركة المتاجرة بالمخدرات على الحدود المشتركة بين البلدين، والتي أخذت أبعادا خطيرة بسبب قلة مراقبتها بشكل عام.

ويمكن أن نذكر أيضا مثالا «حيا» 100٪ وحقيقيا هذه المرة، حتى يتسنى تبيان كيفية استعمال «لغة الخشب» الإعلامية لخدمة بعض الأهداف المسطرة مسبقا: ويتعلق الأمر بالطريقة التي تعالج من خلالها وسائل الإعلام حاليا الأخبار المتعلقة «بمؤتمر السلام الاسرائيلي العربي»، حيث يعم التفاؤل كل مكان وتسعى وسائل الاعلام، بجميع أنواعها، جاهدة إلى إعطاء الانطباع بأن لقاءات مدريد ستفضي إلى حل في نهاية المطاف.

وفي الوقت ذاته، فإن وسائل الإعلام هذه تتجاهل تمام الجهل واقعا - لا يتم الإشارة إليه بتاتا - وهو أن مواقف الاسرائليين والفلسطينيين المركزية التي ستكون في خضم المناقشة هي غير قابلة للتوفيق.

- فدولة إسرائيل، في مفهومها الحالي، غير مستعدة للتنازل عن شبر واحد من الأراضي التي احتلتها سنة 1967. فكيف سيكون، على سبيل المثال لا الحصر، مصير المأزق الذي آل إليه الإسرائيليون، من خلال بناء (105) مستوطنة يهودية، وذلك في إطار مشروع استراتيجي في الضفة الغربية يأوي حوالي (120.000) (مائة وعشرين ألف) مستوطن.

- كما يجد الفلسطينيون أنفسهم كذلك في مأزق آخر، حيث لا يمكنهم التنازل عن مطلبهم الرئيسي، وهو بناء دولة فلسطينية مستقلة في الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل عام 1967 (الضفة الغربية وقطاع غزة).

فلا بأس أن نقبل التفاوض مع الخصم! ولكن، في هذه الحالة، حول ماذا؟

وفي المعالجة الإعلامية لهذه القضية، تسيطر «لغة الخشب» على جميع الأطراف، حيث يتم الحديث في كل شيء، ويتم صرف النظر عما هو حقيقي، وهنا، تحظى الجوانب الثانوية للحدث بالأولوية، بسبب تعذر معالجة لب النزاع، وبالتالي، فإن «لغة الخشب» «ستتحول إلى «مفهوم من خشب» ينتج في نهاية الأمر حدثا من خشب، يكون بنفس الدرجة من الاصطناع والخيال، ربما هو الثمرة الفاسدة لثقافة حوالي 60 سنة خلت من «لغة الخشب».